الجناس وسيلة إقناع وتواصل

أ.م.د: سمير يوسف عليوه

قسم اللغة العربية

بكلية الآداب جامعة حلوان

فالجناس موجود في البيان العربي من الشعر والقرآن، و له ارتباط وثيق بالمعني ،كما يقول الدكتور تمام حسان " فكل آية تنتهي بكلام ذي علاقة عضوية سواء من حيث التركيب أو الأسلوب بما سبق من بقية الآية فلا تكاد الآية تستغني عنه دلاليا لشدة الارتباط بينه و بين بقية أجزائها[1]

فإذا كانت الدراسات البلاغية الحديثة تحاول التنقيب في كل المعطيات اللغوية القديمة منها والحديثة على السواء لتستنتج من خلالها آليات تعين على الإقناع في إطار سياسة الحجاج التواصلية ,لا يقل الجهد المبذول في قراءة البلاغة القديمة والبحث فيها عن متابعة الوسائل البلاغية الحديثة ،كالإعلام ومحاولة إيجاد مرتكزات لغوية فيها وعلامات يكون لها تأثيرها في المتلقين تنفذ إلى عقولهم فتسيطر عليها ويقتنعون بها .

وإلى هذا يشير فيليب بروطون في كتابه "الحجاج في التواصل" الصادر عن المركز القومي للترجمة إلى أن بيرلمان في مصنفه في الحجاج كان بمثابة بعث للبلاغة الأرسطية التي وضع أسسها في كتبه وبخاصة "الخطابة" واللافت للنظر أن كل الذين أسهموا في النقد الغربي الحديث بنظريات ومناهج نقدية كانوا ينطلقون من أرسطو أو يعودون إلى مقولاته النقدية والبلاغية ؛ومن ثم فلا حرج إذا عدنا إلى تراثنا البلاغي لقراءته وإعادة بعث الروح الكامنة فيه والطاقة المتجددة التي ربما حجبها عن الظهور طرائق البحث التقليدية التي اكتفت باجتراره وتكراره دون الوقوف على دقائقه التي تضمنتها مقولات البلاغيين القدماء التي جاءت موجزة مكثفة وإن كانت تحمل دلائل واسعة .[2].

فإن البحث يقرأ هذا الفن البديعي الأكثر ذيوعا بين فنون البديع في البلاغة العربية بحكم تعدد أشكاله وصيغه وذلك في ضوء بلاغة الحجاج والإقناع الحديثة الحديثة باعتباره أداة من أدوات التأثير في المتلقي ؛لإقناعه بما يريد المبدع الأديب نقله إليه من أفكار ورؤى داخل النص ، وهذا ما أشار إليه عبدالقاهر الجرجاني في سياق إشادته بفنون البديع بقوله " وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغي به بدلا ولا تجد عنه حولا , ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه , وأحقه بالحسن وأولاه , ماوقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه , وتأهب لطلبه ...[3]

---

[1] روائع البيان د تمام حسان ، نشر: عالم الكتب،ط ا،لأولى ١٩٩٣م. ص ٢٣

[2] فيليب بروطون ،الحجاج في التواصل، ترجمة، جمعة محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العليمي ، صدر عن المركز القومي للترجمة بالقاهرة، عدد٢٣٣٨؛ ط٢٠١٣م ص ٢٢

[3] أسرار البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاي تح محمود محمد شاكر مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة ص ١٠ وما بعدها،

ولعل تقسيمه إلى طبيعي ومصطنع أو مطبوع ومتكلف أبرز مثال على هذه الفكرة التي يحاول البحث استجلاءها.

تقديمات

في البدء لابد أن نقدم إلمامة سريعة بالحجاج وما وصل إليه ،وبخاصة أنه يمثل الناتج المنطقي لأي خطاب ،وقد تداخلت المقاربات النقدية واللغوية تداخلا شديدا استدعى حضورا لافتا للدراسات البينية "وأقصد بين اللغة والنقد" وازدهرت لغة علم النص ووصلت إلى مراحل متقدمة على يد أوستن في إنجازه البديع "أفعال الكلام" ولابد أن هناك صلة وثيقة بين هذا الناتج وبين الحجاج ،وربما كان الأخير سببا مهما في دراسات كثيرة في المجال الديني ولا سيما الفقه الذي وإن كان جانب منه يهدف إلى الاستنباط ،أي استخراج الأحكام الفقهية من النصوص فإنه يهدف إلى الإقناع ،أي اقتناع المتلقين لها ليعملوا بها وتكون حجة لهم وعليهم، ولعل هذا المجال الديني هو أكثر المجالات التي تستخدم فيه لفظ الحجة والحجية وغيرها من مشتقات هذا المجال ،واللافت للنظر أن النشأة الغربية على يد بيرلمان كانت في القضاء والقانون ،"بل فلسفة القانون" وأظن أن الوشائج بين الفقه والقانون وثيقة وقوية.

والمتابع لحقل الدراسات البلاغية والنقدية الحديثة يجد كثيرا من الدراسات التي أنجزت في هذا المجال ،ويجد أنها تنوعت بين التنظير والتطبيق ؛ولكنها في النهاية اعتمدت على المصنف في الحجاج "ليبرمان" وحتى تلك الدراسات التي جنحت إلى التطبيق قدمت جزءا نظريا منها بعضه كان عاما وبعضها كان منظما ومكثفا في تحديد آليات الحجاج ،وبالطبع كلها صيغ لغوية وكثير منها كان مركزا على النصوص النثرية ،وقليل الذي تناول الشعر وبعضها تكثف في الآليات الحديثة التي طرحها بيرمان ،وبعضها حاول التأصيل لفكرة الحجاج في اللغة العربية وعقد صلة بين ما توصل إليه بيرمان وبين ما استخدمه البلاغيون العرب وإن كانت في النهاية تخلص إلى أن أبرز هذه التقنيات الوسائل اللغوية والوسائل المنطقية ،التدليل وذلك باستخدام التمثيل "الأمثلة والأمثال"والوسائل البلاغية من تشبيه واستعارة وأحيانا الكناية ومن أبرز الوسائل اللغوية التكرار[٤]

[٤] الحجاج في الخطابة الأموية دراسة بلاغية لوسائل الإقناع " للباحث د.عصام أحمد أبوالسعود بحيري ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب جامعة المنوفية ، بإشراف الأستاذ الدكتور عيد بلبع٢٠١٠، الحجاج وظواهره البلاغية بين الخطابة والرسائل في العصر العباسي الأول "دراسة تطبيقية في الجمهرتين" رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الإسكندرية ٢٠٠٦، للباحث :سامح سمير شاهين بإشراف أستاذي الأستاذ الدكتور عيد بلبع،الحجاج والاستدلال

ب

لقد قدم فيليب بروطون في كتابه "الحجاج في التواصل" ما يمكن عده آخر الأطروحات التي قدمت في هذا المجال وأوجزها في شكل ترسيم بياني جعل قاعدته الأساسية "الحجج" وتخرج من هذه القاعدة تصنيفات أربعة هي:

أ ــ السلطة ب- الاشتراك ج التأخير د التماثل.

وبدورها تتفرع كل واحدة منها عدة تفريعات ،فمن السلطة تتفرع التجربة والاستشهاد والكفاءة والسلطة السلبية وفي الاشتراك حجج المواضع والقيم والرأي المشترك وفي التأخير نجد الحجة ما بين التعريف والتقديم والوصف وفي البنية العميقة الفصل وشبه المنطقي "أي التأخير من خلال الاستدلال المنطقي"،وفي الرابع منها وهو حجج التماثل نجد تفريعات الاستعارة والمثال والتماثل [٥]

وبالنظر إلى هذا المخطط الشامل لعملية الحجاج نجد أن معظمها تعتمد على التأثير المستمر على عقلية المتلقي سمعا وبصرا لكي يقتنع بالحجة ويتفاعل مع المبدع أو الخطيب ولما كانت البداية من حقل التقاضي فإن التحليل المنطقي لها يصل إلى الأساليب التي ينتهجها المحامون لكي يؤثروا على القاضي بالاقتناع بحجتهم في الدفاع عن المتهم حتى يصدر حكما في صالحه ،ويضرب بروطون مثلا لذلك فيقول:" وبالطريقة نفسها يقصد طريقة التماثل استعمل النائب العام السابق لمدينة ميلانوأنطونيو بيبرطو ذات يوم تماثلا لكي ينتقد الموقف القضائي الذي يسمح لعدد من المنتجين الإيطاليين بممارسة مهمتهم النيابية على الرغم من نزاعاتهم مع العدالة ، لقد صرح في هذا البلد كل من كان مدانا بحكم قضائي لا يملك الحق في أن يصبح رجلا من رجال المطافئ ولكن لا يمنعه شئ من أن يصبح برلمانيا"[٦].

ويأتي التأثير الإقناعي من المثل إذ مثل للوظائف التي يمكن أن يشغلها طالبها المواطن وتمنع عنه بسبب إدانته بحكم قضائي ،برجل المطافئ "عنوان أو أمثال الوظيفة الرسمية" ،ولكنه يمكن أن يصبح برلمانيا "ونحن نتوقع أن يكون برلمانيا" أي يكون عضوا في البرلمان ،وفي داخل الحديث نلحظ مقارنة بين ما يحدث من نقاش داخل البرلمان تستخدم فيها كل الوسائل الممكنة ليثبت كل عضو صحة رأيه ويقنع الآخرين بحجته ،وهو ما يسعى إليه بيرلمان من خلال طرحه لنظرية الحجاج

الحجاجي" للباحث حبيب أعراب بحث منشور بمجلة عالم الفكر ٢٠٠١،" الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية": للدكتور عبد الله صولة ٢٠٠١

[٥] فيليب بروطون الحجاج في التواصل ص٦٤ مرجع سابق

[٦] نفسه ٦٥

،وكل ذلك يعرف في إطار النظرية بتقنية التماثل التي تستدعي في ذاكرة المتلقي حالات مماثلة اقتنع بها الناس واستقرت في أذهانهم ، ومن ثم تكون المماثلة وسيلة للاقتناع بالجديد.

ويجعل بروطون من التكرار وسيلة للتأطير وهو أحد أركان العملية الحجاجية ، وهو يجعله في تكرار العبارة أو الجملة سواء كان ذلك بالصيغة نفسها أم بمفردات لها تؤدي المعنى نفسه ويضرب مثالا لذلك بإعلان يدعو إلى الإقلاع عن التدخين أو المخدرات يقول:" وهكذا إذا أردت أن أقنع أحدا بعدم تناول المخدرات ،أستطيع أن أستحضر جحيم الإدمان فمخدر الهروين يقيد الذين يتعاطونه ،ويفقدهم الإرادة إننا نخضع كليا لسلطانه فهو الذي يحكم ،ولا يمكننا أن نستغني عنه [٧].

ويعلق عليها قائلا:" إن معنى كل عبارة من هذه العبارات هو نفسه بصيغة كلية فبعض الألفاظ مترادفات وبعضها الآخر يستند إلى استعارات تبنى هي نفسها على اتفاق مسبق "أهوال الجحيم"[٨].

وهو هنا يقصد أن تكرار المعنى والدعوة بعبارات كلها تؤدي إلى نفس المعنى فإنه يمثل ضغطا شديدا على ذهن المتلقي حتى يستوعب الدعوة ويقتنع بها ،وربما أدى ذلك إلى تخليه عن هذه العادة الذميمة .إذن تكرار شكل العبارة بنصها أو ترادفات لا يدع فرصة للتراخي ،أو التكاسل من جانب المتلقي ،وقد يلجأ الكاتب أو المبدع أو المعلن إلى قلب العبارة حتى يحدث تقابلا يؤدي إلى تثبيت معنى وإزاحة الآخر مثل عبارة لا نستطيع أن نجعل من العدل قوة ،لقد جعلنا من القوة عدلا"[٩] .

فقلب العبارة هنا أدى إلى وصول معنى ضرورة تطبيق العدل ونشره ،والتنفير مما هو سائد بجعل القوة عدلا ،لأن استخدام القوة يؤدي في كثير من الأحيان إلى الظلم فالقوة مغرية بسط السلطة حتى ولو لم تكن عادلة ولكن العدل إذا انتشر يصبح قوة كبيرة لأنه في تلك الحالة يدعم السلطة برضا شديد مسلكها العادل ولهذا القلب بعد بصرى مهم في لفت انتباه المتلقي وتحضير حواسه ومداركه .

ويمكن القول :إن أي تكرار أو تغير في بنية الكلمة أو العبارة لابد أن يثير ذهن المتلقي من خلال التأسيس لمعنى جديد ، وإلا كان هذا التغيير أو التكرار لاقيمة له ؛بل عبئا على ذهن المتلقي،وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة في ذلك ولكن لا يتسع لها

---

[٧] الحجاج في التواصل مرجع سابق ص١٠٨ مرجع سابق
[٨] نفسه ص١٠٨
[٩] السابق ص١٠٩

المجال خوف الإطالة منها على سبيل المثال لا الحصر ودون تحليل خوفا من التطويل والملل [10]

ج

وإذا انتقل الباحث من تكرار العبارة إلى تكرار الكلمة فيمكن القول: إن تكرار اللفظ يسهم بدرجة في العملية الإقناعية ،وبالرغم من أن بعض البلاغيين قديما وفي النصف الأول من القرن العشرين عدوها مثلبة وعيبا دالا على ضعف قاموس المبدع ،ولكن حين ظهرت الأسلوبية وبسطت نفوذها على الدراسات اللغوية والبلاغية والنقدية أصبح التكرار عنصرا أساسيا في التحليل الأسلوبي باعتباره لونا من التركيز على ذهن المتلقي، وباعتبار أن النظم القرآني قد شمل أمثلة كثيرة لهذا الأسلوب ،وإن كان كثير من الدارسين قدماء ومحدثين يرفضون فكرة وجود تكرار في القرآن الكريم مع أن المتأمل لسورة الرحمن وسورة الشعراء وكذلك المرسلات يرى ذلك جليا وقيمته البلاغية والمعنوية بل والإيمانية كبيرة جدا ، ولا يمثل أي إقلال من قدر القرآن الكريم، ويبدو أن الرافضين لفكرة التكرار كان في ذهنهم التصور الساذج الشائع بأن التكرار عيب أسلوبي دون النظر إلى أن كل تكرار في القرآن الكريم – وفي اللغة العربية لغة القرآن- يؤسس لمعنى جديد.[11].

---

[10] قوله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ

وقوله تعالى:وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وقوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ

وقوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ*

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

[11] ينظر التصريف البلاغي في النظم القرآني " للباحث، مجلة كلية الآداب، ج حلوان، العدد ٢١السنة ١١ يناير ٢٠٠٧م.

ومن أمثلة تكرار الكلمة قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ[١٢] ـ فقد تكررت: هم ـ مرتين، الأولى مبتدأ خبرها: الأخسرون ـ والثانية ضمير فصل جيء به لتأكيد النسبة بين الطرفين ؛بل وحصر وقصر الخسران على أولئك الذين لهم سوء العذاب [١٣] .

وكذلك قوله تعالى: وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[١٤] ـ

تكررت هنا: أولئك ـ ثلاث مرات، ولم تجد لهذه الكلمة المكررة مع ما جاورها إلا حسنًا وروعة، فالأولى والثانية: تسجلان حكماً عامًّا على منكري البعث: كفرهم بربهم، وكون الأغلال في أعناقهم، والثالثة: بيان لمصيرهم المهين، ودخولهم النار، ومصاحبتهم لها على وجه الخلود الذي لا يعقبه خروج منها، ولو أسقطت: أولئك ـ من الموضعين الثاني والثالث لرك المعنى، واضطرب، فتصبح الواو الداخلة على: الأغلال في أعناقهم ـ واو حال، وتصبح الواو الداخلة على: أصحاب النار هم فيها خالدون ـ عاطفة عطفاً يرك معه المعنى؛ لذلك حسن موضع التكرار في الآية، لما فيه من صحة المعنى وتقويته، وتأكيد النسبة في المواضع الثلاثة للتسجيل عليهم بسوء المصير[١٥]... ؛ومن ثم فلهذا التكرار لكلمة "أولئك" ثلاث مرات وظيفة بلاغية تتمثل في أن مجيئها أولا للإخبار عن شأن هؤلاء المنكرين للبعث ومن ثم كفرهم بالله بهذا الإنكار،وثانيا:جاءت لبيان حالهم ، الأغلال في أعناقهم، ومجيئها ثالثا: فبيان لمآلهم الذي صاروا إليه،والمتمثل في العذاب الأليم المهين.

وقد ألف الكرماني في موضوع التكرار كتابه: البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة و البيان ؛ إذ بين بلاغة القرآن، وفوائد التكرار فيه بشكل مفصل،ومن الكتب المفيدة في هذا الأمر أيضًا كتاب: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، وهو رسالة دكتوراه كتبها الدكتور: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ،نشر مكتبة وهبه، القاهرة ،١٩٩٢م

---

[١٢] النمل ٤ـ٥

[١٣] حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي ، ضبط وتصحيح ، محمد عبد القادر شاهين ،دار الكتب العلمية بيروت ،١٩٩٩م،ص٣٧٣

[١٤] الرعد٥

[١٥] إعجاز القرآن البياني ومصدره الرباني ،د صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٠م ،ص٣١٢ـ٣١٣ بتصرف

ولأهمية التكرار باعتباره أسلوبا أو ملمحا أسلوبيا مهما أو يمكن القول أنه تقنية أسلوبية فإن د محمد عبد المطلب الذي ركز معظم جهده على الربط بين البلاغة العربية القديمة والأسلوبية يلح في دراساته هذه على دراسة البديع في البلاغة العربية من منطلق أنه تكرار نمطي ،وقد استعرض ذلك في كتبه بدءا من "البلاغة والأسلوبية " ثم في" بناء الأسلوب في شعر الحداثة" وأخيرا في "البلاغة العربية قراءة أخرى " ويناقش في كتبه هذه ويحلل كل ألوان البديع بما في ذلك الطباق من منطلق التكرار باعتباره أحد أهم وسائل الأسلوب ، بل إنه أسلوب إبداعي يتعلق باللفظة من حيث فصاحتها يقول:"وإذا كانت مباحث المعاني تتناول الدلالات المركبة ومباحث البيان تتناول الدلالات الإفرادية ،فإن مباحث البديع تتناول جوهر اللفظ وما يحمله من ألقاب بحسب تأليفه مع غيره من الفاظ[١٦].

وفي ضوء هذه الرؤية يقسم البديع إلى مستويين:

أحدهما – المستوى السطحي الذي يختص بالناحية المحسوسة من النطق ،والتي تظهر في اللسان ثم تمر إلى السامع عبر أذنه كالجناس والسجع والازدواج .

والاخر- يتمثل في المستوى الأعمق أو ما يمكن تسميته بالنطق الفكري ،وهو الذي يتصل بالفصاحة المعنوية كالطباق والمقابلة والتورية[١٧] .

ومعنى هذا أن الجناس باعتباره أكثر فنون البديع انتشارا يمثل أسلوبا "أي طريقا ومذهبا" ومن هذه الزاوية يمكن اعتباره تقنية حجاجية بدرجة كبيرة ؛لأنه في حقيقته تكرار مع اختلاف في التنويعات الصياغية والتعبيرية ،وإذا كان القدماء قد عدوه محسنا لفظيا ،فإن كثيرين منهم أضافوا إلى تعريفهم له وتقسيمهم لأشكاله نقطة مهمة أخرى وهي وظيفته المعنوية أي ما ينتجه من معان ،وما يضيفه إلى النص من دلالات وذلك بغرض جذب القارئ أو المتلقي إلى قبول النص الأدبي الذي يحمل في طياته رؤية مبدعه التي يريد إيصالها إلى المتلقي كما ينبغي التواصل معه.

وهذا كله عكس ما رسخه البلاغيون المدرسيون من أنه مجرد محسن بديعي وذلك بعد أن أخذوا ما صنفه السكاكي في مفتاح العلوم ونظمه في أبواب ،وما صنفه الخطيب القزويني في الإيضاح ،وإن كان الاثنان قد أقاما تصنيفاتهما على وعي بها واستيعابا للأساس الذي نشأ منه علم البلاغة باعتباره أدوات تساعد النقد الأدبي على تحقيق علمية المقولات النقدية من استحسان واستقباح ،وحتى لا يصبح الأمر مجرد مقولات انطباعية عفوية تخضع لذوق القائل وانفعالاته حين يتلقى النص

---

[١٦] البلاغة والأسلوبية ،د محمد عبد المطلب ط٣ ،سلسلة لونجمان ،مصر ١٩٩٤م ،ص٢٦٦

[١٧] نفسه ص٢٦٦

الأدبي ،وهذا ما صنعه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

أ٢

هذا وسنلج إلى فكرة اعتبار الجناس تقنية حجاجية من زاوية التكرار باعتباره مؤثرا موسيقيا ومن ثم معنويا وهنا يقع تأثيره في نفس المتلقي لينبه ذهنه إلى ما يلقى عليه من كلام ومن جهة ثانية المشاكلة البصرية حتى في حالتي التّمام والنقصان ،ولذلك فإن ما قاله ابن الأثير عنه "إنه غرة شادخة في وجه الكلام"[١٨] يعد منطلقا قويا لهذه الفكرة فإن الغرة لا ترى إلا بالصبر وهو وإن كان كلاما أخذه البلاغيون على عواهنه فإن دلالاته عميقة جدا سنتطرق إليها في موضعها .

يقول ابن المعتز :"وهو أول من أشار للجناس في كتابه "البديع" هو أن تجئ الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها وقال :الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو ،فمنه ما تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها ويشتق منها ،مثل قول الشاعر في الكامل :يوم خلجت على الخليج نفوسهم "أو يكون تجانسها في تأليف الحروف دون المعنى"[١٩].

ففي البداية التأليف في الحروف ،وبعدها محاولة تشبيه هذا التجانس بتشابه الأجناس من الناس والطير والعروض والنحو وهنا نلتفت إلى العروض والنحو اللذين يشكلان نظاما موسيقيا هو الشعر ،إذن يكون التركيز هنا على الصوت الذي يحدثه تكرار هذا اللفظ وينشأ الانتباه من اختلاف المعنى الذي يحدث مفارقة بين الشكل والمضمون ،وهو في حد ذاته يحدث إيقاعا معنويا يوازي الإيقاع الشكلي الذي جاء من تآلف الألفاظ ،وضرب ابن المعتز مثالا بقول الشاعر: يوماً خلجت على الخليج نفوسهم ... عصبا وأنت لمثلها مستامُ.

فالجناس هنا وقع بين "خلجت – والخليج" وبالرغم من تجانس الحروف خلج وهو فعل بمعنى جذبت والخليج: وهو بحر صغير يجذب الماء من بحر كبير فهاتان

---

[١٨] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد ،تح ، أحمد الحوفي، بدوي طبانة نشر دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة ج١ص٢٤١

[١٩] البديع ، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي ، ط دار الجيل ،الطبعة الأولى ١٩٩٠م، ص٥

اللفظتان متفقتان في الصيغة واشتقاق المعنى والبناء [٢٠]؛لكن إعادة التشكيل جعلت الأمر مغايرا ، ولعل هذا كان في البداية التي ارتكز عليها ابن المعتز في كلامه عن الجناس وإن كان بعد ذلك قد استقصى هو وغيره أشكالا أخرى للجناس وبخاصة الكلمات المتشابهة في التنظيم والتركيب .

ويستنتج ذلك كمال أبو ديب في فن الشعرية إذ يقول: "ولعل هذا الادراك لتلك القدرة تتجلى مظاهره في الربط بين الدلالة المباشرة لاتحاد لفظي [illegible] أو تشابههما وما يحققه ذلك من قيمة صوتية ،وبين إكساب التركيب موضع الجناس والنص الذي يحتويه مزيدا من ألق الشعرية، وذلك بما يقدمه من ظاهرة إبراز للفرق عبر درجة قصوى من التشابه ،أي أنه تعميق للفرق عن طريق تعميق التشابه وعلى محورين مختلفين للفرق والتشابه، الفرق الدلالي والتشابه الصوتي ،ولأنه كذلك فإن الفجوة – مسافة التوتر فيه أكثر حدة وهو أكثر خلخلة لبنية التوقعات لدى المتلقي[٢١] .

وهذه الخلخلة لبنية التوقعات ،مما يتوخاه الحجاج والاقناع حيث يسعى أصلا وبكل وسائله أن يخلخل ما استقر في ذهن المتلقي لينشئ معنى جديدا يطلبه ويتمناه ،ولعل ما قاله عبد القاهر قديما يقترب من هذا الهدف المنشود إذ يقول: فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعا حميدا ..فبهذه السريرة صار التجنيس ،وخصوصا المستوفي منه المتفق في الصورة من حلى الشعر [٢٢].ويضرب عبد القاهر لذلك مثلا ببيت أبي تمام :

هُنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ

إن الجناس بين (الحَمَام) ، و(الحِمام) يولّد إيقاعاً صوتياً مطرباً نتج عن اتحاد اللفظين مع اختلاف حركة حروفهما ، ثم إن هذه الموسيقى تجذبك إلى ما وراءها من الفرق الدلالي العميق بين (الحَمام) هذا الكائن اللطيف الرامز للسلام والحب والعاطفة الرقيقة ، وبين (الحِمام) الذي هو الموت والهلاك والفراق .

---

[٢٠] كتاب الصناعتين أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري تح على محمد البجاوي وآخر المكتبة العصرية بيروت ١٩٨٦م ص ٣٢١

[٢١] كمال أبو ديب في الشعرية كمال أبو أديب ، مؤسسة الأبحاث العربية لبنان ط١ ١٩٨٧م ص٥.وينظر له جدلية الخفاء والتجلي، دار العلم للملايين.- في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية لبنان.- لغة الغياب في قصيدة الحداثة، محاضرة، مجلة الفكر عدد٣ صيف ١٩٨٨.وينظر: جمال الدين بن الشيخ، الشعرية العربية، تر: مبارك حنون وآخرون، دار توبقال،المغرب،١٩٩٦ ط١،ص٥.

[٢٢] أسرار البلاغة ،تح محمود محمد شاكر ،ص٧،٨ مرجع سابق.

وهكذا فمما بين التشابه الصوتي بإيقاعه والفرق الدلالي بعمقه يبدو التعبير جاذبا انتباه المتلقي وفكره ، منطلقا من الإيهام المنوط بالتشابه ، منتهيا إلى الدهشة المنوطة بإدراك عمق المفارقة.[٢٣]

وفي هذا المثال يحدث تكرار لنفس الحروف والتركيب ويختلف في الحركات على الحروف فيحدث تنغيم موسيقي يلفت النظر بدوره إلى المفارقة بين اللفظين في المعنى ،ولعل هذا ما أشار إليه بلفظة المشتقات حيث ينتمي اللفظان إلى جذر واحد وتتوالد منه المشتقات في تركيبات صوتية مؤثرة في المعنى ،وكما أشرت من قبل فإن المفارقة بين الشكل والمضمون أو اللفظ والمعنى أو المدلول والدلالة والذي بالضرورة يقع على سمع المتلقي وقعا مؤثرا.

والمثير للدهشة في الأمر أن عبد القاهر قد أشار إلى هذا إشارة بالغة الذكاء والدقة حين قال :ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة ،وقد أعطاها ،ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها"[٢٤].

وأظن أن هذا الكلام أبلغ رد على من قالوا بأن الجناس حلية لفظية لا تضيف إلى المعنى شيئا، ولكنه يراها أولا مخادعة من المرسل أو الملقي /المبدع والشاعر ،فهو يحاول أن يوهمك بأنه لم يقدم فائدة ،ثم يلاحقه بقوله :وقد أعطاها" إذن هو يعطي فائدة ،ومن ثم فإن الجناس مقصود به إضافة إلى المعنى تجعل المتلقي مستعدا ومتهيئا لقبول الأمر الذي يعرضه .وأبو تمام يصف هنا طبيعة من طبائع النساء اللاتي " اللائي"يحببن من يألفهن ويجذبهن ،،فإذا ما كسر أحد عيافة من حائهن انقلبن فصرن حماما "موتا" بفراقهن الذي يمثل لمن يحبهن فقدانا أشبه بالموت ،ولذلك يعلق على هذا عبد القاهر بقوله في المقتبس السابق:" ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها " إذن فالجناس بهذه الصورة البديعية قد أضاف وزاد وأحسن الزيادة .

وإذا تأملنا البيتين السابقين لهذا البيت ندرك مغزى ما قاله عبد القاهر:

أَتَصَعْصَعَتْ عَبَرَاتُ عَيْنِكَ أَنْ دَعَتْ وَرْقَاءُ حِينَ تَصَعْصَعَ الإِظْلاَمُ ضَحِكُ

لاَ تَنْشِجَنَّ لَهَا فَإِنَّ بُكَاءَهَا وَإِنَّ بُكَاءَكَ اسْتِغْرَامُ [٢٥]

---

[٢٣] البديع والتشكيل الصوتي أ.د / يوسف بن عبدا لله الأنصاري جامعة أم القرى.

[٢٤] أسرار البلاغة ص٧،٨

[٢٥] ديوان أبي تمام ج١ ص١١٤

وكل بيت منهما يتضمن جناسا كاملا أو تاما ففي البيت الأول تصعصعت والأولى تعني ذرف الدموع بغزارة والثانية اشتداد الظلام .

وفي البيت الثاني "بكاء" وقد حرص أبو تمام على أن يضيف إلى الأولى خبرا يشير إلى مدلولها الذي يقصده "فإن بكاءها ضحك "وفي الثانية يضيف معنى مغايرا أو مقابلا له فيما يعرف بالطباق في لغة البلاغة القديمة ومفارقة بلغة النقد الحديث فالأولى ضحك وفي الثانية استغرام أي شعور بالغرم وهو الدين الثقيل .[٢٦]

وفي العلاقة الجناسية بينها وبين الحِمام /الموت عندما تُكسَر حاؤها، ومن ثمة كان تحذيره لذاته وقد جردها مخاطَبًا يُخاطبه بألا يُردد بكاءه في صدره ـ لا تنشجنّ ـ مشاركة لما يبدو من صوت الحمامة أنه بكاء وهو في الحقيقة ليس ببكاء، بل موت " لما يبعثن من الشوق والحزن " [٢٧] والنهي هنا معلَّلٌ بأن بكاءها ضحك بينما بكاؤه هو استغرام وهلاك للنفس، والانتهاء عن البكاء استدعاء للوصف بالتجلد المباين لحالة الواقف على الدمن مستذكرًا الأحبة، وهكذا تبدو الصورة واضحة ،بل ويصدق كلام عبد القاهر بأن الفائدة حاصلة ،والزيادة في المعنى متحققة.

ولا ريب أنّ الرؤية الفنية للجناس هنا يتسع إطارُها تماماً حين نربطها بسياقها هذا ، حيث يظهر لنا أن أبا تمام استطاع ببراعةٍ فائقةٍ ، وفنيةٍ عاليةٍ ، أن يجعل من الجناس أسلوبا فنيًا تتجلى في طبيعته الجامعة لتشابه الظاهر " الصوتي" ، وتباين الجوهر" الدلالي" هذه الصورة المفارِقة للبكاء الذي هو ضحك ، والبكاء الذي هو استغرامٌ يفضي إلى الهلاك .

إذن بمثل هذا التوظيف الواعي بالطبيعة الفنية للجناس يتحقق لهذا اللون البديعي تأثيره المنشود على المستوى الصوتي الذي لا ينفك عن مستوى حركة المعنى في السياق ، ولا يُعدّ ـ حينئذٍ ـ اختلافُ نوع الجناس عائقاً دون تحقيق هذا الأثر .

ولعلنا هنا نذكر مقولة عبد الله صولة "فإن الهدف منه "يقصد الحجاج وآلياته "هو تغيير المسار الذهني للمتلقي من خلال التركيز على بعض الآليات التي تتيح له الإقناع بما يعرض عليه ،فيجعله يعزف عن فكرة ما أو يؤيد فكرة ما ويدعمها كما يقول بيرلمان:"وغاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو تزيد في

---

[٢٦] ينظر ديوانه بشرح الخطيب التبريزي ٣/ ١٥٢ ـ تحقيق محمد عبده عزام ١٠٩/٢ـ ط١٩٨٣/٤م ـ دار المعارف. تصعصت: تفرقت واضطربت، ورقاء: حمامة، لا تنشجن، المراد لا تبكي، عياقة: تشاؤمًا

[٢٧] الأعلم الشنتمري: شرح ديوان أبي تمام ـ ٤٢/٢. تحقيق إبراهيم نادن ٤٧٣/١ـ ط٢٠٠٤/١م- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية،المغرب

درجة الإذعان [٢٨]،وهذا يتفق مع مقولة الخوارزمي التي وردت في كتابه مفاتيح العلوم وهي "أن تعقل نفس السامع الشئ بقول يصدق به ،وإن لم يكن برهانا"[٢٩]

وحين تبصر العين هذا التشاكل اللفظي والمعنوي فإن الذهن أو العقل يتهيأ للاستحسان والإعجاب ،ومن ثم يكون أميل إلى القبول حتى وإن لم يكن اقتناعا كاملا وهو الذي ينتجه البرهان ،ولعلنا لو تذكرنا حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "لعل أحدكم يكون ألحن بحجته ،فأحكم له فإنما أحكم له قطعة من النار"[٣٠] وهو نموذج في البلاغة النبوية تعبيرا وإيجازا وبتأمل عبارة "ألحن بحجته "ولفظ اللحن يحمل معنيين متضادين الأول :اللحن وهو النغم وتحسين الكلام ويطلق أيضا على الإطار الموسيقى الذي يوضع لقصيدة ما فتصبح أغنية ، ولذلك يسمونه "اللحن" .

والمعنى الثاني :هو الخطأ في إعراب الكلمات في الجمل والعبارات وهو ما عبر عنه اللغويون وألف فيه أحدهم كتابا سماه "لحن العامة".[٣١]،وفي كلتا الحالتين فإن التركيز هنا على السمع ووسيلة اجتذابه اللحن ،وقد اتفق البلاغيون القدماء والمحدثون على تأثير الجناس موسيقيا حتى وإن درسوه في مجال الصوت باعتبار تكرير شكل الحروف وتآلفها حتى وإن اختلف المعنى أو تباينت الدلالة وهو المرتكز الذي على أساسه صنفوا الجناس إلى تام وناقص.

ثم يأتي لفظ "حجته" وهو ما يعني أن الحجاج معروف لدى العرب قديما ،وفي السياق نفسه وبالمعاني التي يرددها المحدثون ،فهو يعني تقاضي اثنين أمام قاض ،وكل يعرض حجته، والذي يكون أبلغ "ألحن" هو الذي يكسب ولعل التوجيه النبوي الذي طرحه الحديث الشريف يؤكد هذا المعنى ،ويؤكد في الوقت نفسه أن التأثير على المتلقي وإن كان قاضيا فربما وقع عليه التأثير ، ومن ثم الاقتناع.

واللافت للنظر في الحديث السابق أن المتلقي الذي يتحدث عن تأثر بالكلام البليغ "ألحن بحجته" نبي يوحى إليه وكأنه يقول: إن نبوته لا تمنع تأثير الكلام البليغ الموشى باللحن فيه فيجعله يقتنع بكلامه فيحكم له ،وهنا اتساق في الشخصية وكلام

---

[٢٨] الحجاج أطره ومنطلقاته ضمن مصنف في الحجاج ،عبد الله صولة ،تونس د ت، ص٢٩٩

[٢٩] مفاتيح العلوم الخوارزمي، تح ،إبراهيم الأبياري ،دار الكتاب العربي ،بيروت ،ص٣.

[٣٠] فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ،كتاب الأحكام ،باب من قضي له بحق أخيه فلا يأخذه فإن قضاء الحاكم لا يحل حراما ولا يحرم حلالا دار الريان للتراث ١٩٨٦م

[٣١] لحن العوام ،لأبي بكر محمد بن حسن الزبيدى ، تح الدكتور رمضان عبد التواب، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة : الثانية ، ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م.

فهو القائل: إن من الشعر لحكمة ،وإن من البيان لسحرا"، ولأن السحر إقناع بغير الحقيقة فتأثيره قائم على الايهام ،ومن ثم فإن البيان وهو الكلام البليغ يمكن أن يحدث هذا التأثير فيقتنع متلقيه بغير الحقيقة، وهو أيضا ما يشير إليه كلام الخوارزمي "أن تعقل نفس السامع بشئ يصدق به ،وإن لم يكن برهانا" أي وإن لم يكن هناك برهان أي دليل عليه، المهم أن النفس تأثرت واقتنعت به وصدقته.

وإذا عدنا إلى البلاغيين قدماء ومحدثين فسنجد أنهم اتفقوا على أن الجناس لون من ألوان البديع يقوم على اتفاق لفظين في حروف الكلمة واختلاف معناهما مع بعض الفروق القليلة عند بعضهم مثل قدامة الذي جعل الأساس [illegible] ومن ثم يعرف الجناس ب" هو أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظه واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة"[٣٢]،أي أن الأساس هو توليد المعاني المتغايرة عبر لفظة واحدة "وأظن أنه يقصد هنا الجناس التام "ثم استدرك النوع الثاني بقوله:" وألفاظ متجانسة مشتقة" وهذا يعني الجناس الناقص أو غير التام" وهذا من وجهة نظر الباحث راجع إلى اهتمام قدامة بالمعنى أكثر من اللفظ ،وهو وإن كان يأخذها من جهة المبدع /الشاعر فإنها تمتد لتشمل المتلقي أيضا ،لأن المتلقي حين يرى اللفظين في ثوب واحد ،ثم يتوقف فجأة ليجد المعنى مختلفا ،وهنا يكون مستعدا لقبول المعاني التي يطرحها عليه الشاعر وأبرز مثال على ذلك البيت الذي يتردد كثيرا في كتب البلاغة قديمها وحديثها باعتباره مثالا على الجناس التام وهو قول أبي تمام في مستهل قصيدته الشهيرة في فتح عمورية إذ يبدؤها بقوله:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ في حدّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

ومعروف أن الحد الأول هو حد السيف ،والحد الثاني هو الحد الفاصل أي المميز بين أمرين وهما هنا "الجد واللعب" ولذلك يردفهما ببيت آخر هو :

بيضُ الصَّفائحِ لاَ سودُ الصَّحائفِ في مُتُونِهِنَّ جلاءُ الشَّك والرّيَبِ.

والجناس في البيت الأول تام "حد ، حد" حتى وإن اقترن اللفظ الأول بضمير الغائب ،والثاني جاء معرفا بأل ، أما الذي في البيت الثاني فجاء غير تام بالرغم من تماثل الحروف ،إلا أن ترتيبها مختلف وهو ما ينتج مكونا موسيقيا يمكن أن يقرنه الباحث باللحن الموسيقي.

فالجناس أحدث نغماً موسيقياً يثير النفس وتطرب إليه الأذن . كما أدى إلى حركة ذهنية تثير الانتباه عن طريق الاختلاف في المعنى ، ويزداد الجناس جمالاً إذا كان نابعاً من طبيعة المعاني التي يعبر عنها الأديب ولم يكنْ متكلَّفاً؛ لأنه يعطي جرساً

---

٣٢ نقد الشعر ،قدامة بن جعفر ، تح، كمال مصطفى ،ط١الخانجي القاهرة د.ت ،ص٩٧،٩٦

موسيقياً تطرب له الأذن ويُثير الذهن لما ينطوي عليه من مفاجأة تقوي المعنى ، وإلا كان زينة شكلية لا قيمة لها.

٢ ب

وبالنظر إلى التقسيمات التي قسمها البلاغيون لأنواع الجناس التام [٣٣] سيتأكد لدى الباحث ما ذهب إليه من قبل ،وهو تأثير الجناس صوتيا وشكليا في المتلقي ومن خلاله يعد الجناس وسيلة حجاجية

وقد وقع الجناس في القرآن الكريم في كثير من آياته فجاء في قمة بالفصاحة والبلاغة المعجزة؛ بل وكان ضربا من ضروب الإ- ـاز البلاغي في [illegible] يعضي [illegible] للألفاظ جزالة ، وإيقاعا موسيقيا على الآذان ،فهو جناس حسن ، غير متكلف ، له بديع الأثر في إبراز المعنى المقصود ، وجمال الأسلوب ، وإيضاح الصورة ، وزيادة تأثيرها ، ويدخل في نفس المتلقي بهجة ومتعة وراحة ،ولنأخذ مثالين من القرآن الكريم ،الأول جاء في آية واحدة والثاني جاء في آيتين متتاليتين.

أما الأول :فقد جاء في سورة الروم في قوله تعالى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ [٣٤]

فالساعة الأولى : يوم القيامة .والساعة الثانية : هي الساعة الزمنية التي يعرف بها الوقت، ويتكون من مجموعها الليل والنهار . وبينهما جناس تام ، حيث اتفق اللفظان في عدد الحروف ، ونوعها ، وترتيبها ، وهيئتها ،واختلفا في الدلالة ومن هذا الاختلاف الدلالي تنشأ الأسئلة ،لماذا سميت القيامة "الساعة" وما دلالة ألا يشعر الناس في البرزخ بالوقت؟

فقد يكون هذا المبعوث يوم القيامة من الذين ماتوا في زمن مبكر من التاريخ ،وقد يكون ميتا قبل القيامة بساعة أو في لحظتها ،فالكل متساو في الخلق والإحساس . ولهذا جاء الجناس معبرا أدق تعبير عن شعور هؤلاء المجرمين فهم لا يحسون إنهم قضوا في حياتهم الدنيا برهة قصيرة الأمد جدا حتى يعبروا عنها ببرهة أو دقيقة مثلا، ولا بفترة طويلة يعبرون عنها بيوم مثلا، فكانت كلمة" ساعة" خير معبر عن شعورهم بهذا الوقت الوجيز.

---

[٣٣] ينظر بحث بعنوان : بلاغة الجناس في القرآن الكريم ، د أحمد عبد المجيد خليفة ، الكلية الجامعية،مكة المكرمة ـ الأستاذ المشارك بجامعة أم القرى،د ت ،ص١٦.

[٣٤] الروم ٥٥

والمثال الثاني: في آيتين متتاليتين وجاء في الفاصلة القرآنية ،وقد ورد في سورة النور في ختام آية يبين الله فيها فضله على عباده بتكثيف السحاب وإنزال المطر في تركيب بلاغي معجز ،ويتحدث عن الرعد الذي يسبق المطر فيقول تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ"[٣٥]

أي يكاد سنا برقه من شدته يخطف الأبصار ويذهبها . وأن الله سبحانه وتعالى يتصرف في الليل والنهار ويقلبهما ، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيرا ، ويقصر الذي كان طويلا ، والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه .

فالأبصار الأولى : جمع بصر ، وهو حاسة الرؤيا .

والأبصار الثانية : جمع بصر ، وهو العلم ، أي لذوي القلوب والعقول والفكر والتدبر، وبالرغم من هذا التباين في المعاني والدلالات فإن اللفظين أخذا شكلا واحدا ،وأحدثا في القراءة صوتا واحدا ،وما يدعم ذلك أنهما جاءتا فاصلة قرآنية فيهما تناسق صوتي وموسيقي ولأن كلمة الأبصار هنا أدل على المعنى المراد من كلمة العيون، لما أنها تدل على ما منحته العين من وظيفة الإبصار، وهي التي بها العظة والاعتبار، فأنت ذا ترى أن أداء المعنى كاملا تطلب إيراد هذه الكلمة ، حتى إذا وردت رأينا هذا التناسق اللفظي.

وفي المعنى جاءت كل منهما أداة حجاجية ،فالله – عز وجل- ينبه المسلم القارئ للقرآن بأن يتأكد من وجوده عبر ظواهر الخلق والطبيعة ،ويزكي من ينتبه لهذا بأنه يملك بصيرة صحيحة وواعية تفهم الأشياء على حقيقتها .

وكذلك قوله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ.[٣٦] فيه هنا اختلاف بين "مُنْذِرِين" و "الْمُنْذَرِينَ" في شكل الذّال وهذا أدّى إلى اختلافهما في المعنى..

والأمثلة السابقة من نوع الجناس المماثل ،أما المستوفي فيضربون له مثلا بقول أبي تمام في مدح يحيى بن عبد الله

---

[٣٥] النور ٤٣-٤٤

[٣٦] الصافات ٧٣- ٧٤

ما مات مِنْ كرمِ الزمان فإنَّه ... ...يحْيا لَدى يحْيى بْنِ عبد الله.

الأولى فعل "يحيا" والثانية اسم" يحيى" وإن كان متشابهين في الحروف والتشكيل ،ولكن المعنى مختلف "وهنا يقود ذهن المتلقي إلى الانتباه لما يسمع .

وتأتي الأنواع الأخرى من الجناس التام وهو الجناس المركب أي يأتي أحد اللفظين في كلمة واحدة ،ويأتي الثاني في كلمتين أو يكون بعضه حرفا في كلمة ومكانه الكلمة الثانية .أما الأول فمثاله قول أبي الفتح البستي :

إذا مَلِكٌ لمْ يكُنْ ذا هِبهْ ... فدَعْهُ فدَوْلتهُ ذاهِبهْ.

ويقع الجناس بين كلمتي "ذا هبة "حيث أن الأولى بمعنى "صاحب هبة " بمعنى المنح والعطايا :أو الإسراف في عطاياه"؛لأن كثير العطاء يقضي على ما في خزائن الدولة في سبيل إكرام رعيته وهذا يؤدي إلى ذهاب دولته ومن ثم جاءت الكلمة الثانية بمعنى "زائلة " أي دولته منتهية.

وقد يكون الجناس الأول "ذا هبة" بمعنى صاحب شدة وقوة وبطش بالعابثين وفي حزم الأمور ووضعها في نصابها ،فإن لم يك كذلك فاتركه فدولته ذاهبة" أي زائلة.

وإذا كان الجناس الأول مكونا من كلمتين الا أن ايقاعه الصوتي تحمله كلمة واحدة توحي بالمعنى الذي يفهمه المتلقي ويتأثر به.

وتتأمل كيف يحمل البيت معنى وقضية منطقية تحتاج إلى الإقناع ،وكان الجناس فيها هو وسيلة الإقناع ،سواء أكان عن طريق المعنى واختلافه بين اللفظين ،أو عن طريق التشابه بالموسيقى الذي يؤلف بين كلمتين في شطر الجناس الأول ،وتضامهما في كلمة واحدة في الشق الثاني من الجناس .

ويأتي المثال الثاني أكثر دلالة على التأثير الموسيقي وهما بيتان للحريري إذ يقول:

لا تَلْهَ عَن تَذْكارِ ذَنْبِكَ وابْكِهِ بدَمْعٍ يُحاكِي الوَبْلَ حالَ مَصابِهِ

ومَثِّل لِعَيْنَيْكَ الحِمامَ ووَقْعَهُ ورَوْعَةَ مَلْقاهُ ومَطْعَمَ صَابِهِ

فالجناس وقع في البيتين بين "مصابه" في البيت الأول ،ثم يأتي في البيت الثاني مكونا من الميم التي في آخر كلمة "مطعم" لتنضم أو تضاف إلى كلمة "صابه" والصاب هو المر بطعم الصبار وهو أثر من آثار "الحمام".

الأول يسمونه المتشابه والثاني يسمونه المرفو ويأتي الثالث وهو المفروق ويضربون له مثالا بقول الشاعر:

لا تعرضن على الرواة قصيدة ... ما لم تكن بالغت في تهذيبها

وإذا عرَضت الشعرَ غيرَ مهذّب ... ظنوه منك وساوس تهذي بها.

ويبدو أن مجئ الشق الأول من الجناس كاملا والثاني مفرقا في كلمتين هو الذي جعلهم يعدونه لونا مختلف عن المتشابه المكون من كلمتين أيضا .

والمتأمل للأمثلة السابقة يجد ها جاءت في سياق إقناعي كل في موضوعه وسياقه ،وجاء الجناس فيها ليضيف إليها بعدا موسيقيا ينتج معاني تحقق الإقناع للمتلقي ففي البيتين الأخيرين يرى الشاعر ضرورة أن يعرض شعره على الرواة حتى يعطوه صك الصلاحية ،ولو قدمه للجمهور من غير رؤية الرواة عد وساوسا ،إذن النتيجة الحاصلة من وراء هذا هي أن الشعراء لابد أن يعرضوا شعرهم على الرواة.

وقد قسم محمد عبد المطلب بنية الجناس إلى مستويين مستوى سطحي كما أشرت من قبل، ومستوى عميق ،وهي بنية الدلالة والمعنى "وفيه يتم تدقيق النظر في حركة الذهن ،واختيارها لنقط ارتكاز تتشابه على مستوى الصياغة ،وتتغاير على مستوى الدلالة ،ويلا حظ أن المتلقي يؤدي دورا بالغ الأهمية في انتاج الدلالة التجانسية ،وذلك باستحضار حاسة التوقع عنده ،وهو توقع يقتضي أن ينتج التماثل السطحي تماثلا عميقا ،وهنا يخالف الناتج هذا التوقع حيث يقود التماثل إلى التخالف وبهذا تتكاثر المنبهات التعبيرية التي تؤكد شعرية النص [٣٧]،وهذا يتوافق مع ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني إذ قال :حتى إذا تمكن في نفسك تمامها ،ووعى سمعك آخرها انصرفت عن ظنك الأول ،وزلت عن الذي سبق من التخيل ،وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال"[٣٨].

وحصول الربح والفائدة التي أشار إليها عبد القاهر الجرجاني في نصه السابق يأتي من أنه "بالغ التأثير والتأثير في التعبير مما يحدثه من أثر إيقاعي وصوتي على أذن السامع والمتلقي تجعله أشد ميلا إلى الإصغاء والتلذذ بنغمته العذبة وتجعل العبارة على الأذن سهلة مستساغة ،فتجد في النفس القبول ،وتتأثر به أي تأثير ،وتقع من القلب أحسن موقعا"[٣٩].

---

[٣٧] البلاغة العربية قراءة أخرى د محمد عبد المطلب ، ص٣٧٣

[٣٨] أسرار البلاغة ص١٣ مرجع سابق.

[٣٩] البديع في ضوء أساليب القرآن ، عبد الفتاح لاشين ،ط دار المعارف بمصر ١٩٧٧ص١٥٥

وقد يظهر التأثير الحجاجي للجناس في بنيته الموسيقية عندما يكون الجناس غير تام ،حيث يحقق التباين الصوتي تأثيرا موسيقيا واضحا سواء أكان ذلك عن طريق اختلاف ترتيب الحروف إلى نقص حرف أو زيادة حرف أو حرفين إلى اختلاف حرف أو حرفين وهنا يصبح الذهن منتبها ،فقد أدي هذا الاختلاف الصوتي إلى كسر رتابة السمع في التلقي فحينما يقول أبو تمام :"بيض الصفائح لا سود الصحائف" فإن وقعها على الأذن يكون مثيرا لرغبة المعرفة لما يقصد إليه الشاعر ،وهو هدم التنجيم والتنبؤ ،وإقناع المتلقي بأن الجهاد بالسيف في مثل هذه المواقف [illegible] أو كلمتين متضادتين في المعنى هما "بيض وسود".

واللافت للنظر أن كلتا كلمتي الجناس والطباق المصاحب لهما متساوية في الحروف والسكنات، أي أنه من الناحية العروضية ليس هناك تغيير أو مخالفة المعتاد من التراتب الموسيقي المفترض ،ولو تأملنا أصوات الحروف لأدركنا أثر التغير الصوتي الحادث من اختلاف ترتيب الحروف بأصواتها ،فالصاد مع الفاء في "الصفائح" تختلف بالطبع عن الصاد مع الحاء ،وكذلك الهمزة مع الحاء تختلف عن الهمزة مع الفاء ،وبالتالي ينتج كسر للرتابة والملل من المتلقي مما يحفزه على الانتباه إلى الدلالة الناتجة من هذا الاختلاف في الأصوات.

ثم يأتي بعد ذلك موضوع الزيادة والنقصان فأحد طرفي الجناس ينتقص حرفا عن الطرف الآخر ،وهنا يبدو التأثير الموسيقي ،كما يحدث عند الزيادة أيضا في قول أبي تمام "يمدون من أيد عواص عواصم" [٤٠]فهنا نقص في "عواص عن "عواصم" يدفع ذهن المتلقي للانتباه والبحث عن الدلالة المقصودة وينتهي من التفكير في هذا التباين إلى الاقتناع بما يريد الشاعر أن يقنعه به[٤١].

ومثله في القرآن الكريم قوله تعالى:" وَالْتَفَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * [٤٢] فقد زادت الميم في "المساق" ، ونلاحظ أن الساق هي وسيلة المساق ،بمعنى الوصول إلى الموضع من الله عند الحساب ،وهم يساقون لأنهم من الرهبة والخوف من اللقاء يترددون، ومن ثم يقتنع المتلقي بحتمية البعث والحساب .

ويأتي مثال الزيادة بحرفين في قول الخنساء :

إن البكاء هو الشفاء * من الجوى بين الجوانح

---

[٤٠] يمدون من أيدٍ عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضبِ ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ،أحمد الهاشمي ،المكتبة العصرية ،١٩٩٩،ص٣٢٧

[٤١] البديع في ضوء أساليب القرآن ، عبد الفتاح لاشين ،ط دار المعارف بمصر ١٩٧٧ص١٥٥

[٤٢] القيامة ٢٩-٣٠

فقد جاء الطرف الثاني من الجناس زائدا بحرفين عن الطرف الآخر ،ولابد أن يحدث هذا تغايرا موسيقيا وصوتيا بكل ما يحمله الحرفان من حمولات صوتية مضافة ،وهو كاف لدفع المتلقي إلى التأمل في هذه الدلالات الناتجة من هذه الاضافة الصوتية ،وقد استخدمت الشاعرة "الخنساء" هذا الجناس بعد طرحها فكرة منطقية هي "إن البكاء يساعد على الشفاء من البلايا التي تصيب الإنسان.

وهكذا نستطيع القول: إن الجناس من حيث إنه ظاهرة صوتية يمكن أن يتخذ وسيلة حجاجية مهمة في إطار توصيل الرسالة إلى المتلقي ،بل ومحاولة إقناعه بما يطرح عليه من فكرة أو عاطفة ،وسواء أكانت الرسالة شعرا أم نثرا فإن الجناس يلعب فيها دورا في إزدواج الدلالة بكل ما يحمله من حمولات صوتية ولا يمكن النظر إليه على أنه حلية لفظية يتبارى الشعراء فيها وألاعيب من جانب الشعراء يتلاعبون فيها بالمتلقين فلماذا التحايل والتلاعب ؟ لابد أنه كان له هدف واضح وهو شغل ذهن المتلقي بما وراءها ،أو بما تتضمنه من أفكار .

ويرى محمد عبد المطلب أن هذا التأثير الصوتي يرجع إلى ما لفت نظر البلاغيين في القرآن من متشابه لفظي أو مشترك لفظي فيقول:" ويستمد البلاغيون من مباحث اللغة حول المشترك اللفظي ومن مباحث الصرفيين حول الاشتقاق الذي تتوافق فيه الصور اللفظية والكلام في التجنيس باعتباره أقرب النمطيات إلى الناحية الصوتية الخالصة وقد تناولوه بتفريعات معقدة حرصا منهم على أن يتمثل في التركيب أقصى درجات التوازن بخاصة فيما أسموه بالجناس التام الذي تتساوى فيه أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها بين كلمتين ينتج عنهما صور لفظية لها إيقاعها الخاص هي "الجناس "[٤٣] .

٢-ج

نأتي إلى التأثير البصري للجناس في المتلقي ،وهو أمر لم يلتفت إليه الكثيرون ممن درسوا البلاغة العربية القديمة بصفة عامة ،وموضوع الجناس بصفة خاصة ،فالجناس لغويا يعني المشاكلة ،أي مشاكلة اللفظين وإن اختلف معناهما يقول ابن منظور في لسان العرب :" وجانس الشيئ أي شاكله"، واتحد معه في الجنس ويقال هذا يجانس هذا أي يشاكله ،وفلان يجانس البهائم ولا يجانس الناس ،إذا لم يكن له تمييز ولاعقل[٤٤].

وقد التفت أحد الدارسين المحدثين إلى هذا الأمر ،لأنه كان يبحث عن التشكيل البصري وهو محمد الصفراني إذ يقول:" إن الهيئة البصرية للحرف قادرة على نقل

---

[٤٣] البلاغة والأسلوبية ص٢٩٣مرجع سابق

[٤٤] لسان العرب لابن منظور مادة جنس

دلالات معينة للمتلقي ،إذ إنه مثلما توحي الأصوات بالدلالات فإن هيئة الحروف توحي بالدلالات ،لأن المرأ يعي في ذهنه هيئات الحروف مثلما يعي أصواتها ويربطها ربطا وثيقا بالأشكال الشبيهة بها وهذه القدرة ناتجة عن تداعيات يلعب تراسل الحواس فيها دورا كبيرا ،فالانطباع الذي يصل من خلال حاسة معينة كالبصر مثلا لا يلبث أن يثير إيحاءات بحواس أخرى كالسمع أو اللمس ،وهذا يؤكد وجود طاقة دالية كامنة في طبيعة الأبنية البصرية للحروف المنسابة أو المتعثرة الحادة والرصينة[٤٥].

ونضرب مثالا ذكره ابن رشيق في العمدة وهو مثال للجناس التام أو للتماثل وهو بيت شعر لأبي نواس وبيت لأبي تمام أما الأول لأبي نواس في مدح الفضل بن الربيع فيقول فيه:

عباس عباس إذا حضر الوغى ... والفضل فضل والربيع ربيع.

والثاني لأبي تمام يقول فيه :

ليالينا بالرقتين وأهلنا ... سقى العهد منك العهد والعهد و العهد.

ففي البيت الأول لأبي نواس يشترك العبث بتكرار لفظة "عباس" بتكرارها بنفس التركيب ،ولكن يفاجأ الذهن باختلاف المعنى ،وكذلك الفضل فضل ،والربيع ربيع ،فعباس الأولى اسم شخص والثانية صفة له في الحرب فهو دائما شديد متجهم ،والفضل الأولى اسم للممدوح والثانية فضل أي متكرم دائما بالفضل ،والربيع اسم أبيه والثانية وصف له بأنه ربيع أي أمن وسلام ورائحة طيبة على الناس من حوله ،وهنا تستدعي الحاسة البصرية المخزون الذهني لاستدراك الدلالات المغايرة للألفاظ التي رأتها أو سمعتها ،وفي هذه اللحظة يقتنع المتلقي بالمميزات التي أضافها الشاعر على شخصية الممدوح وهو الفضل من الربيع .

وفي المثال الثاني يريد أبو تمام أن يقنعنا بأن لياليه بالرقتين كانت هنيئة وسعيدة وطويلة في الوقت نفسه ،فالعهد الأول المسقى وهو الوقت والثاني هو صون العهد والحفاظ عليه ،والعهد الثالث هو الوصية من قولهم عهد فلان إلى فلان أي أوصاه ،والعهد الرابع المطر، وهنا التتابع للفظ واحد كفيل بلفت النظر والتأمل في اختلاف

---

[٤٥] التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث ، محمد الصفراني "١٩٥٠-٢٠٠٤"،ط أولى ،النادي الأدبي بالرياض، ٢٠٠٨ص١٤٥.

المعاني ومن ثم الاقتناع بالمعنى الذي يقصده أبو تمام من جراء هذا التتابع الشكلي للفظ[٤٦]

فاللفظة ليست مضمونا معنويا فحسب ،بل هي أيضا شحنة من الصور المتولدة بالطريقة الكتابية وبالتفاعل الصوتي الذي تحدثه الحروف[٤٧] ،وإن كان هذا يحدث في الجناس التام فإن المماثلة اللفظية تظهر في الجناس الناقص أكثر حين ينقص حرف أو يزيد حرف وحرفان ،أو تتغير مواضع الحروف وبالرغم من أن النقاد القدامى عابوه ،وبخاصة ما كان منه مفروقا في كلمتين كقول الشاعر عمر بن علي المطوعي :

أمير كله كرم سعدنا بأخذ المجد منه واقتباسه .

يحاكي النيل حين يسام نيلا ويحكي باسلا في وقت باسه.

يعلق ابن رشيق عليه بقوله: يناسب فجاءت القافيتان كما ترى في اللفظ وليس بينهما في الخط إلا مجاورة الحروف ، وهذا أسهل معنى لمن حاوله وأقرب شئ مما تناوله أبواب الفراغ وقلة الفائدة ،وهو مما لا يشك فيه في تكلفه وقد أكثر منه هؤلاء الساقة المتعقبون في نثرهم ونظمهم حتى بردوا بل تركوا"[٤٨].

فقد جعله ابن رشيق متكلفا ، أى أن الذين يأتون به هم الساقة المتعقبون في نثرهم ونظمهم ،ويبدو أن هذا التلاعب بالألفاظ مما يشكل على الذهن ، ومن ثم يحتاج قدحا ذهنيا في ادراك الصلة بين اللفظين وهو يحتاج تركيزا بصريا وذهنيا .

ومع هذا فإنه مدح نوعا من الجناس الناقص الذي يأتي عن طريق تغيير مواقع الحروف مستدلا بقول أبي تمام :بيض الصفائح لا سود الصحائف .

وبقول البحتري :

شواجر أرماح تقطع بينهم شواجر أرحام ملوم قطوعها .[٤٩]

فالجناس في بيت أبي تمام بين "الصفائح" و"الصحائف" وفي بيت البحتري بين "أرماح" و"أرحام" وهو ما يلفت البصر ،وبالتالي يتحرك الذهن للبحث عن المعاني الكامنة وراء كل تشكيل حرفي منها وهنا يمكن أن نتذكر كلام ابن خلدون

---

[٤٦] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر: دار الجيل ١٩٨١م. ص٢٢٧

[٤٧] علي الشوك الدادئية بين الأمس واليوم وزارة الثقافة والإعلام العراق بغداد د ت ص١١١.

[٤٨] العمدة ص ٢٣٢ مرجع سابق

[٤٩] المرجع السابق ٢٢٩

عن الحروف بأنها رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس ،فهي ثاني رتبة على الدلالة اللغوية"[٥٠].

وهكذا يمكن أن يجري الحديث على باقي أشكال الجناس الناقص لينطبق عليه ما حاولنا استنباطه من الأمثلة السابقة فالمشاكلة البصرية قائمة والأبيات التي وردت فيها تحمل قضايا تحتاج إلى إقناع المتلقي بفكرتها حتى لو كانت مدحا أو هجاء أو إثباتا لرأي كما في بيتي أبي تمام ،وغيره من الأمثلة المنثورة في كتب النقد والبلاغة القديمة التي لا يمكن استيعابها وشرحها وتأويلها في إطار حجاجها في بحث مكتمل كهذا وتحتاج إلى كتاب كامل أو بحث موسع وأكثر تفصيلا.

و هذه بعض الأمثلة لبيان أن الجناس الناقص كالجناس التام من الوسائل الحجاجية الإقناعية الفعّالة، بحَمْلها و تشويقها المتلقي إلى الإصغاء والانتباه وإعمال الفكر في هذا المتشابه صوتيا، المختلِف دلاليا.

إذ وظف القرآن الكريم هذا اللون البديعي لتحقيق التوازن الصوتي ،و لملاءمة السياق والمقام حيث استُعملت هذه الوسيلة البديعية لِما فيها من جمع بين كلمتين متماثلتين أو متشابهتين من حيث اللفظ ، مختلفتين من حيث المعنى ، مما يُحدثُ من الناحية الصوتية تكرارا منتظما للأصوات ، موافقاً لتوقعات المتلقي، وفي الوقت نفسه متضمّناً لمعانٍ جديدة ، مما يفسح مجالا رحبا للتأمل والنظر، فيحقق بذلك متعتين : متعة السماع بالتلذذ بما يُحدثه التجانس الصوتي عن طريق استعمال الجناس ، ومتعة العقل بما يفتحه ذلك التعبير من آفاق للتفكر.

فقوله تعالى: وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ[٥١]

فالجناس غير التام بين"ينهون- ينأون"، ألا ترى أن موقف الكفار من القرآن أنهم يبعدون الناس عنه، كما يبعدون أنفسهم عنه فعبّر القرآن عن ذلك بكلمتين متقاربتين ليشعر قربهما بقرب معنييهما.[٥٢].

ويطول القول إذا مضينا في بيان كيف حلت كل كلمة في جمل الجناس محلها بحيث لا تغنى كلمة اخرى في هذا الموضع غناءها.

---

[٥٠] المقدمة، لابن خلدون ،ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣ص٣٢٨

[٥١] الأنعام٢٦

[٥٢]الأصوات اللغوية د إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٨١م ص١١٣

هذا بجانب الحركة التصويرية للجملة إذ رسمت كلمتا الجناس لوحة فنية بديعية متحركة لهؤلاء الكفار وهم يحاربون القرآن بإبعاد الناس عنه حتى لا يسمعوه ،فإذا ابتعد الناس نأوا هم بأنفسهم عنه.

فقوله تعالى: و التفَّت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق[٥٣].

حيث يتجلى الجناس بين لفظي الساق ، و هي ساق القدَم ، و المساق الذي زيدت في أوله ميم المصدر ، فهو مصدر ميمي من ساقَ / يسوق / سوْقاً و سِياقاً .

وبجانب الايقاع الصوتي المتناسب يرسم الجناس صورة حية متحركة الصوت و الإيقاع تلتقان معا وهي نهايته كما كانت بدايته في رحم أمه ثم ربط هذه الصورة و الصورة الحركية الحية للمساق الأخير ،وهو المردوف: وهو ما كانت الزيادة فى أوله ،أوالجناس المختلف اللاحق هو ما كان الحرفان المختلفان فيه غير متقاربين .كما يبينه علماء البلاغة.

وقوله تعالى: قال تعالى {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} [الهمزة ١]

فالجناس بين كلمتي همزة ولمزة، وقد وقع الخلاف في الحرف الأول، فالهمزة في كلمة همزة من أقصى الحلق واللام في كلمة لمزة من حافة اللسان[٥٤]

وقوله تعالى :قل هو الله أحد *الله الصمد" لم يلد ..و لم يولد" فهو جناس غير تام بسبب تغير الشكل و بعض الحروف و فيهما من الدلالة أن أولاهما تنفي أن يكون لله أبناء ،و سبحان الله كيف يلد الله أو يكون له صاحبة – زوجة – و هو رب العالمين .

و الثانية تنفي عن الله أن يكون من نسل أحد سبقه ..فلكل مولود والد و معني أن يكون الله – معاذ الله – قد جاء من نسل من سبقه ,أنك تنفي كل صفات الكمال عن الله, فإن المولود يكون ضعيفا ثم يقوي, و يكون صغيرا و معتمدا على غيره, ثم يتعلم و يتدرب أن يعتمد علي نفسه ,و يخطئ و يصيب ,و هذا محال في حق الله , و هذا محض كفر و افتراء, فهو الأول و الآخر و هو القدوس المنزه عن كل نقص و عيب ..

انظر كيف ولّدت هاتين الكلمتين الصغيرتين وهذا الجناس كل هذه المعاني و الدلالات..فهل جاءت المحسنات البديعية لمجرد الزينة و الجرس الموسيقي.

---

[٥٣] القيامة ٢٩-٣٠

[٥٤] المرجع السابق ص ١٣١.

وقول الله تعالى : " أنبتكم من الأرض نباتا" مصدر الفعل "أنبت" هو "إنبات" و ليس "نبات" فلماذا جاءت علي هذا النحو في الآية .. مخالفة للقاعدة ؟

إن في هذه الكلمة و بهذا اللفظ و ليس غيره – أعني نباتا – دلالة و معني و موسيقى ليست في غيره – أعني إنباتا إذ ربط الجناس بين المعنى الظاهر في نمو النبات وما يطرأ عليه من أحوال محسوسة وبين المعنى الخفي من تكوين الإنسان في مرحلة النطفة الأمشاج والعلقة والمضغة المخلقة وغير المخلقة ثم تكوين العظام وكسائها باللحم واخيرا مرحلة الروح ليضح المتلقي أمام عظمة الله الخالق ؛بل وأمام نفسه ليراها كما يجب أن يراها.

وأخيرا أقول :هذه بعض الأمثلة التوضيحية للجناس غير التام خوفا من الإطالة في البحث بعدما تأكدت فكرة أن الجناس وسيلة حجاجية تهدف إلى الاقناع والتواصل بين الملقي والمتلقي ؛بل وإبراز قدرة الملقي على التأثير في المتلقي.

الخاتمة

وفي الختام أقول:

تبين للباحث أن ما يُعطي التجنيس من الفضيلة، أمرٌ لم يتمَّ إلا بنُصْرةِ المعنى، إذ لو كان باللفظ وَحْدَهُ لما كان فيه مستحسنٌ، ولما وُجد فيه معيبٌ مُستهجَن،وإن الجناس الذي عده كثير من البلاغيين القدماء حلية لفظية يزين بها الشاعر أو الناثر إبداعه أو يظهر بها براعته في استخدام الألفاظ للتلاعب بالمتلقين ،هو أداة حجاجية من زاوية التكرار الذي يحدث تأثيرا كبيرا في ذهن السامع والقارئ عن طريق المفارقة بين الملفوظ والمضمون ،وبين المدلول والدلالة فإذا أنشد الشعر وتوالى اللفظ بصيغة واحدة توقفت الأذن عند الصيغة الثانية ،وتوقف معها الذهن والفكر ليبحث عن الهدف من هذا الاختلاف عبر السياق التي قيلت فيه فيفطن إلى ما يريده المرسل "المبدع" وربما استحسنه فاقتنع به.

وكذلك القارئ الذي يقرأ الشعر مكتوبا ينظر فيجد اللفظ الثاني متطابقا مع اللفظ الأول ،ولكنه يجد دلالته أو معناه مختلفا ،فيتوقف عنده ويعيد النظر مرة ثانية ،وهذا التوقف يحدث إثارة عقلية وفكرية للتأمل في السياق بعامة ،وقد يستحسن ما رأى ويقتنع به، وربما كان هذا ما عناه عبد القاهر الجرجاني حين قال: حتى إذا ظن أنه لا فائدة من هذا التكرار ،وجد الفائدة عامة مثمرة بل ينصعه "وجد الربح والفائدة .

أهم المراجع

**أسرار البلاغة ،عبد القاهر الجرجاني ،تح ،محمود محمد شاكر،مكتبة ،الخانجي ،القاهرة ،ط١، ١٩٩١م.

**إعجاز القرآن البياني ومصدره الرباني ،د صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار عمارللنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٠م .

**البديع ،عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م

**البديع في ضوء أساليب القرآن ،عبد الفتاح لاشين، ط دار المعارف ،بمصر ١٩٧٧م

**البلاغة العربية قراءة أخرى محمد عبد المطلب ، مكتبة لبنان ناشرون بيروت ،والشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان،١٩٩٤م.

**البلاغة والأسلوبية د محمد عبد المطلب مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ،ط٣ ١٩٩٤.

**التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث ،محمد الصفراني، "١٩٥٠-٢٠٠٤"ط أولى، النادي الأدبي بالرياض ٢٠٠٨م.

**الحجاج في التواصل ،فيليب بروطون ،ترجمة جمعة محمد مشبال، وعبد الواحد التهامي العليمي، ط٢٠١٣م.

**ديوان أبي تمام ،بشرح الخطيب التبريزي ، تح، محمد عبده عزام ، دار المعارف.ط٤، ١٩٨٣م،المغرب.

**شرح ديوان أبي تمام ، الأعلم الشنتمري، تح، إبراهيم نادن ط١/٢٠٠٤م، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية،المغرب.

** الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ ترجمة :مبارك حنون وآخرون ،دار توبقال،المغرب ط١ ١٩٩٦ .

**العمدة في محاسن الشعر وآدابه ،أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تح ،محمد محيي الدين عبد الحميد ،نشر: دار الجيل ،بيروت، ١٩٨١م.

**في الشعرية، كمال أبو ديب ، نشر مؤسسة الأبحاث العربية ،لبنان ،ط١، ١٩٨٧م

**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،لضياء الدين بن الأثير نصر الله بن محمد ،تح ، أحمد الحوفي، بدوي طبانة، نشر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

**مفاتيح العلوم، حمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي، تح إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ،الطبعة ،الثانية،بيروت.

**المقدمة ،لابن خلدون ،ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

**لحن العوام ،لأبي بكر محمد بن حسن بن مذحج الزبيدى ، تح الدكتور رمضان عبد التواب، نشر مكتبة الخانجى ،القاهرة الطبعة الثانية ، ٢٠٠٠ م.

** نقد الشعر قدامة ،بن جعفر، تح كمال مصطفى، ط١الخانجي، القاهرة د.ت